العرب
الإثنين 2019/07/15
السنة 42 العدد 11408

هاربات من معسكرات بوكو حرام في نيجيريا يروين قصصهن

«المختطفات» كتاب يوثق بالتفاصيل شهادات نساء عشن جرائم التنظيم المتشدد

تعاني النســاء في قرى نيجيريا الأمرين بســبب الأعمال الوحشــية التي يرتكبهــا مقاتلو تنظيم بوكو حرام في حقهن، وقــد أصبحت أعمال القتل والعنف والانتهاكات الجنسية المختلفة التي ترتكبها الجماعة المتشددة أمرا لا يخفــى على أحد، لكن الصحافــي والمؤلف الألماني فولفغانغ باور اختار أن يقدم في كتابه "المختطفات.. شهادات من فتيات بوكو حرام" نظرة أكثر عمقا وتتناول مأســاة البعض من اللاتي كن أسيرات في معسكرات الرق التي أقامها بوكو حرام بأدق التفاصيل، ليوجه العالم نحو سياسات لجوء تأخذ في الاعتبار أكثر فأكثر البعد الإنساني.

ألم مضاعف بين الجرائم التي شهدوها ومصير المفقودين المجهول

محمد الحمامصي
كاتب مصري

بتــولا، ذات الواحــد والأربعــين عاما والأم لثمانية أبناء، ســيدة مفعمة بالقوة، تتحــدث بســرعة، تحدثــت بــكل ألم عما عاشته وشهدته من فظائع ارتكبها مقاتلو بوكــو حرام قبــل أن تفــر بجلدها، وهي ترضع طفلها البالغ من العمر أســبوعين والــذي كانت حبلى به عندمــا اختطفتها الجماعة المتشددة.

كانت شــهادة بتولا ضمن شــهادات أكثــر من ســتين فتــاة وســيدة تعرضن لنفــس المصيــر على أيــدي مقاتلي بوكو حــرام ونجحــن في الفــرار من معســكر رقيق للجماعــة الإرهابيــة، أجرى معهن المؤلف الألمانــي فولفغانغ باور في يوليو 2015 ويناير 2016 حوارات ليضمن في ما بعد شــهاداتهن في كتابــه "المختطفات.. شــهادات من فتيــات بوكو حــرام" الذي ترجم إلى العربية من قبل علا عادل.

يعتبر الكتاب وثيقة مهمّة ومناشــدة حقيقيــة من أجل سياســات لجــوء أكثر إنســانية. وإلى جانب شــهادات النساء اللائي كــن ضحايا لبوكو حــرام تضمن الكتــاب صورهــن التــي أخذت بعدســة المصور الفوتوغرافي أندي سبيرا.

التقــى فولفغانــغ ببتولا وقــد كانت بصحبــة ابنتها "رابــي" البالغــة ثلاثة عشر عاما. كان زوج بتولا يعمل بالزراعة ويشتغل لديه العديد من العمال حتى وقع هجــوم بوكو حرام ومــازال مفقودا حتى اليوم، شــأنه في ذلك تماما شــأن ابنتها الكبرى، في حين لقي سبعة عشر فردا من أفراد أسرتها حتفهم مقتولين.

عاشــت بتولا تسعة أشهر في معسكر "البوابــة 1" التابع لجماعــة بوكو حرام؛ لا تفصلها عن شــقيقتها ســعدية ســوى أشــجار قليلة، كما ظلت ابنتها رابي قيد الاعتقال في معسكر "البوابة 2".

يقــول فولفغانــغ "كان الكثيــر مــن النســاء اللاتــي تحدثنا إليهــن قد فررن قبل أيام قليلة من غابة سامبيسا"، مؤكدا أن شــهاداتهن توثق تلك الجرائم التي لا يصدقها عقــل، وتمنحنا نظرة عن الحياة الداخلية لهذا التنظيم؛ "فالأمر هنا يتعلق بجماعــة إرهابيــة قتلــت في الســنوات الأخيــرة أكبر عدد من البشــر، ربما أكثر ممن قتلهم تنظيم الدولة الإسلامية".

شهادات النساء التي وثقها فولفغانغ تبدأ بسرد حياتهن قبل اختطافهن من قبل بوكو حرام، ثم تتشــعب إلى شهادات بناتهن القاصرات وأطفالهن وأزواجهن.

تتذكــر بتــولا تفاصيــل أول هجــوم تعرضت له أســرتها فتقــول "في صباح اليوم الذي جاء فيــه مقاتلو بوكو حرام، كنــا في الطريــق إلى حقلنا، ســمعنا من خلفنــا صــوت إطــلاق رصــاص، قلــت لأبنائــي إن عليهــم أن يختبئوا". وتتابع "قــررت العودة إلــى القرية لكــي أحضر باقي أفراد العائلة، شعرت بخوف شديد، لكنني لم أستطع أن أترك أبنائي وأمضي! رأيــت المقاتلــين بالفعل فــي الطريق إلى القرية، كانوا يرتدون زيا عسكريا مموها ويضعون عمامات على رؤوسهم، أطلقوا النيــران على جميع الرجــال حتى العزل، رأيت كيــف أطلقوا النيــران على الرجال الذيــن حاولــوا أن يهربــوا بالدراجــات البخاريــة، رأيــت فــي الطريــق 11 قتيلا عندمــا كنــت أحضــر الأبناء مــن المنزل وأسرع معهم إلى الأحراش".

انطلقــت طائــرة مقاتلة فــوق رؤس بتولا وأبنائها ثــم أطلقت نيران مدافعها على القرية بشــكل عشوائي دون أن يكون لها هدف معين، ما أســفر عن وفاة تسعة أشــخاص في منــزل ابنة بتــولا الكبرى، والــذي كان فيــه ثلاثة من أبنــاء زوجها مــن زوجته الأولــى ووالدتــه، بالإضافة إلى خمسة أقارب آخرين؛ امرأتين وثلاثة أطفال، كانوا قد نجوا بأنفسهم لتوهم من قرية أخرى متجهين إلى "جوبلا".

عــادت بتــولا مســرعة إلــى القريــة لتطمئن علــى ابنتها التي وجدتها خائرة القــوى لكنهــا لا تزال حية. تــروي بتولا "بكينــا واحتضنا بعضنا، كنــا نقف أمام منزلها المدمر، رأيت ساقا مقطوعة، وسط الأنقاض، كان هناك الكثير من الجثث في الشوارع، أغلبهم من ضحايا بوكو حرام".

شــجاعة بتولا وجرأتها فــي العودة إلــى القرية شــاركتها فيهما أربع نســاء أخريات قررن عند رؤية الجثث تنهشــها الكلاب دفنها جميعا، فتقول بتولا "رجوت خالتــي أن تترقــب ظهــور المقاتلين لكي تحذرنا في الوقت المناســب، حفرنا حفرة لكل جثمــان، ألمتني ذراعاي جدا من كثرة الحفر". تمكنت بتــولا ورفيقاتها من دفن ســت عشرة جثة بينها جثة جندي قبل أن يباغتهن المقاتلــون مرة أخرى، والذين لم ترهم خالتهــا عند اقترابهم بســبب كبر ســنها. جاء المقاتلون علــى متن دراجات بخارية وسيرا على الأقدام.

تقول بتولا "دفعونا وضربونا، قيدوا أيادينا خلف ظهورنا بأحبال بلاســتيكية وجاؤوا بنا إلى منزل تاجر الخمر".

في الداخــل، اســتعمل عناصر بوكو حرام السياط لضرب النساء، تتذكر بتولا التي تلقت ثلاثين جلدة ذلك بكل ألم فتقول "لن أنسى هذا الرقم أبدا، لقد تفتق ظهري بأكملــه من الجــراح وبلل الدم ملابســي بالكامــل، إن ظهــري يؤلمني حتــى اليوم بسبب هذه الضربات".

عقد المقاتلــون عصابات حول رؤوس الأسيرات كي لا يرين أي شيء وبقين على تلك الحالة طــول الليل. توفيت "تشــام" خالة بتولا مختنقة لأن رأسها كان ملفوفا بعصابــة ســميكة أكثر ممــا ينبغي؛ فلم تستطع التنفس بشــكل جيد. تقول بتولا "ســمعنا طيلــة الليــل صوت تنفســها، ينبعــث على نحــو متحشــرج". وتتابع "عندما دخل المقاتلون في الصباح التالي، لاحظوا أن الخالة ماتت فألقوا بجثمانها في بئر تقع أمام المنزل مباشــرة، سمعت صــوت الجلبة الناتج عــن إلقاء جثمانها في الماء، لم أســتطع فــي هذه اللحظة أن أبكي، لم أستطع أن أفكر".

تواصلــت المعارك وبشــكل مفاجئ قرابــة الظهيــرة واقتحــم الجيــش مرة أخــرى القرية، فــلاذ القائمون علــى حراســة الأســيرات بالفرار. دخــل القريــة رتــل مــن الدبابات كان صوتها قد ســمع من مســافة بعيــدة، ولا تــزال بتــولا تتذكر صــوت طقطقة جنازيرها المخيف وصوت الطلقات.

نجحــت إحدى الأســيرات فــي التحــرر من قيودهــا ومن ثم نزعت قيــود البقية، ركضن في القريــة نحو الجبال، رأين الجنود قادمين على مــتن خمس دبابات، وكانت لــدى مقاتلــي بوكو حــرام كذلك دبابات، أطلقت إحدى دبابات بوكو حرام النيران فأســقطت إحدى دبابات الجيش في الماء وإثر ذلك أطبق المقاتلون الحصار على الجنــود. انضم الكثيــر من الجنود للنســاء الفــارات إلــى الجبــال وكانوا يشعرون بخوف كبير لدرجة أنهم تنكروا في ثياب نساء.

اقتــاد المقاتلون النســاء، وكن قرابة أربعــين امــرأة، وعددا مــن الأطفال نحو قريــة "جوبــلا" التــي تبعد عــن الجبال حوالي عشرين كيلو مترا.

وكشــف تقرير لــلأمم المتحدة نشــر الاثنين عــن تجنيد بوكو حــرام لـ8 آلاف طفــل على الأقل منذ بدء تمــرده في 2009 في منطقة "بحيرة تشاد" وسط أفريقيا.

وقال مســؤول المشــاريع القومية في مكتــب الجريمة والمخــدرات التابع للأمم المتحــدة، سيلفســتر تونذى أتيــري، إن "تجنيد الأطفال واســتغلالهم تترتب عليه آثار طويلــة المدى على حياتهم" بســبب الآثــار طويلة المدى للصدمة العنيفة التي عاشوها.

مجازر علنية

فــي "جوبــلا" رأت بتــولا جارهــا "بابالابا" فــي محطة الباصــات الكبيرة. تقــول بتولا "لقد أصبح الآن زعيم مقاتلي بوكو حــرام في المنطقــة". وتضيف "لقد رآني، لكنــه تظاهر بأنــه لا يعرفني، كان هنــاك 16 رجلا من قريتنــا يركعون أمامه فــي الشــارع، كانــوا راكعــين في صف طويل". أعلــن بابالابا إلــى الذين وقعوا في الأسر "لقد جئنا بكم إلى هنا، لكي تروا كيف نقيم حدود الله".

ووفق بتــولا، كان بابالابــا يعمل في تجــارة جلــود البقــر والماعــز وهــو في الثلاثيــن مــن عمــره، وتقــول إنــه "كان متزوجا ولديه ثلاثة أبناء، لم يسبق له قط أن اهتم بأســرته الفقيرة وقبل انضمامه لبوكو حــرام كان نكرة"، بعد ذلك اختطف بابالابا ثلاث فتيات من البلدة وتزوج بهن وأخذهن مع أسرته إلى الغابة.

ضــرب مقاتلــو بوكــو حــرام أعناق الرجال بالسيوف، بعد أن يضغطوا عليهم نحو الأسفل. تسرد بتولا تفاصيل ما رأته بأم عينيها عندما كان أحد المقاتلين يمسك بالرجال الأســرى ويقطع آخر رؤوســهم. تقول "اســتمر الأمر وقتــا طويلا جدا، لا أعرف كم. كانــوا بعد ذلك يرفعون رؤوس المقتولين إلــى أعلى بحيث نســتطيع أن نراها جميعا، ويلقون بها في الشارع".

وواصل المقاتلون نفس الأمر مع بقية الرجــال الذين ظلــوا مختبئين في المنازل وحاولوا أن يلوذوا بالفرار من القرية قبل أن يقعوا في الأسر.

وتواصــل بتولا روايتهــا "أخذ الدم يتدفق من جذوع الرجال، كانت الأجســاد ترتجــف عندمــا يخــرج الــدم بأكمله من الجسد، ثم يتوقف عن الارتجاف، وقبل أن يقطع مقاتلــو بوكو حرام رؤوس الرجال، عصبوا أعينهم".

وتضيــف "كنت أعرفهــم جميعا، كان موســى زوج ابنتي الكبرى واحدا منهم، كان يركع أمامنا أيضــا هارونا وعبدالله وبابــا وماي وجــورو، يمكنني أن أخبرك أيضا بأسماء الآخرين".

بدأ تمرد بوكو حرام قبل 10 ســنوات بهــدف إقامــة دولة إســلامية متشــددة في شــمال شــرق نيجيريا، وامتد نشاط التنظيم منذ ذلك الوقت إلى النيجر وتشاد وكاميرون المجاورة. قتلوهم جميعا ما عدا رجلا واحد اسمه إيجاكرايــو، الذي كان في بادئ الأمر يريد الفرار مع الرجال لكنه انقلب عليهم بعد ذلك وتعاون مع عناصر بوكو حرام وأطلعهــم على الدرب المؤدية لقريــة "واكارا" النائية الصغيرة، التي لا يسكنها سوى المسيحيون.

عنف جنسي

في ذلك المســاء نقــل بابالابا ورجاله الفتيــات اليافعات أولا بعيــدا على متن ســيارات نقل، ثم عادت نفس الســيارات في الصباح التالي لتنقل الأســرى الأكبر ســنا. تقول بتولا "نقلونى بصحبة أبي. عرفنا في غضون ذلك أن المطاف سينتهي بنا إلى غابة سامبيسا".

وتــددت منظمــات حقوقيــة محلية ودولية بالاعتداءات الجنسية التي تطال النســاء فــي نيجيريــا خاصــة الفتيات الصغيرات والتــي ترتكبها جماعة بوكو حرام.

وذكــر تقرير لــلأمم المتحــدة أنه تم الإبــلاغ عن 997 حالة في عــام 2017، في حــين كان العدد 644 حالــة في عام 2016، تتعلق بالاغتصاب والاسترقاق الجنسي والــزواج القســري التــي تســتهدف النســاء على أيدي عناصــر بوكو حرام فــي نيجيريــا. كمــا يســتخدم التنظيم الإرهابي النساء والأطفال لتنفيذ عمليات انتحارية.

وكان مسلحو بوكو حرام قد اختطفوا في 14 أبريل 2014، لدى اقتحامهم لمدرسة شــيبوك الداخليــة للفتيــات، 276 طالبة تتراوح أعمارهن ما بين 12 و17 عاما.

ومنذ ذلك الحــين هربت أكثر من 100 فتــاة أو تم إطلاق ســراحهن فــي إطار صفقات تبادل أسرى أو أنقذهن الجيش.

ولا تنتهي معانــاة الضحايا بمجرد تمكنهن من الهرب بل تزداد الأمور تعقيدا بالنسبة لهن، إذ يواجهن الرفض الأسري والمجتمعي ونظرات الريبة والوصم.

وتتخذ بوكو حرام مقرها الرئيســي في مســتنقعات غابة "ســامبيسا" والتي تساعدها على الاختباء. ويقول فولفغانغ إنهــا "الغابــة التي باتت تســبب الذعر لدولــة حديثة". ويصفهــا بأنها "معتمة ويكاد يكون التغول فيها غير ممكن، يظن الكثيــر من أهــل نيجيريــا أن من يطأها لــن يجد طريقه للخروج منهــا أبدا؛ فهم يقولــون إن هنــاك لعنة مــن العصور القديمة قد حلّت عليها؛ فالغابة قديمة لدرجة أن أحدا لا يســتطيع أن يؤكد معنى اسمها الأصلي".

وغابة "ســامبيســا" هي الأخيرة مــن نوعها؛ إذ لم يتبق ســواها من بــين كل الغابــات الكبرى في شــمال شــرقي نيجيريــا، وأشــجار هذه الغابة لا يتجاوز ارتفاعها بضعة أمتار قليلة، وهي أشجار معوجة ومتداخلة في بعضهــا، أدغالها مليئــة بالأشــواك الحــادة مثــل المخالب، وتيجان أشجارها تعوق التطلع للســماء، ونــادرا ما تنجح الشــمس في النفاذ إلــى داخلها وصولا لــلأرض، كمــا أن تربتها ليســت ثابتة، والأنهــار الضخمة التــي تنبع من جبال "مانــدرا" لا تجري لتصب فــي البحر، بل تنتهي في مستنقعاتها.

ويقــول فولفغانــغ "يوجد فــي هذه الغابة الكثير من الحيوانات المتوحشــة، إلا أن الإنسان هو أخطر قاطنيها وتحديدا الرجل" في إشــارة إلــى الفظاعات التي ترتكب بحق النســاء كالاغتصاب وغيره من الانتهاكات الجنسية التي تستهدفهن في تلك المنطقة.

فولفغانغ باور

كــم هــي مؤلمــة أقــوال هؤلاء النســاء؛ لأنها من بين أســباب أخــرى توضــح لنا إلــى أي مــدى نظرتنا مازالت محدودة

ورغم أن جماعــة بوكو حرام خطيرة إلــى درجة كبيــرة بالنظر إلى نشــاطها والهجمــات التي نفذتها، إلا أنه لا يعرف عنها سوى القليل؛ فكيفية إدارتها وكذلك ماهيــة أهدافها طويلة المــدى ومن الذي يمولهــا ولماذا تتخذ تلك القــرارات كلها أمور ليست واضحة.

وبحســب فولفغانغ، لا تقدم شهادات النســاء المختطفــات أجوبــة عــن هذه الأسئلة، لكنها تســاعد على الاقتراب من الإجابــة؛ فأقوالهن ليســت فقط مصادر معلومــات عــن بوكو حرام بــل هي أكثر من ذلك.

ويقول "إنها شهادات لذواتهن؛ لأنها تصحبنا إلى حياتهــن التي ظلت غريبة علينــا رغم انتشــار الإنترنــت والعولمة، كمــا تقودنا أقوالهن إلــى حواري القرى التي يقطنها والتي لا نستطيع أن ننطق أســماءها بطريقــة صحيحــة، والتي لا تظهر إلا على القليل من الخرائط".

ويؤكد فولفغانغ "كم هي مؤلمة أقوال هؤلاء النساء؛ لأنها من بين أسباب أخرى توضــح لنا إلى أي مــدى نظرتنا مازالت محــدودة، وإلــى أي مــدى يعــد نموذج إدراكنا ضيقــا، كم هو ضئيل فهمنا لهذا العالم، وهذا الزمن الذي نعتبره زمننا".

وتشــير العديد من التقاريــر إلى أن تمرد بوكو حرام تســبب بمقتــل 27 ألفا فــي نيجيريا، فيما لا يــزال نحو مليوني شــخص غير قادريــن على العــودة إلى منازلهم.